

رمزية اللباس في التجربة الصوفية

صابر سويسي
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

تمهيد:

تكمّن أهمية اللباس في كونه واحداً من أبرز التعبيرات الثقافية أو الحضارية، فهو مقوم من مقومات شخصية الفرد ورمز من رموز انتمائه وهويته الجماعية¹، لذا تتعدد أشكاله وتتنوع، حاملة لدلالات مختلفة قد تقترن بمهنة أو مذهب أو عقيدة أو فكرة.

ويتجلى هذا بشكل لافت للانتباه في الظاهرة الدينية، فمن يذكر البوذية مثلاً، ترد إلى ذهنه مباشرة صورة زيّ معتنقيها وألوانه المخصصة، ومن يستحضر المسيحية لا يمكن أن يغفل عن لباس الرهبان ذكورا كانوا أو إناثا، وكذلك الشأن لمن يتحدث عن اليهودية، لأنّ جميع الأديان تعرّضت إلى موضوع اللباس، وتوسّعت فيه فوضعت شروطاً له، وسار أصحابها على اتباع تقليد معيّن في اختيارهم لأشكال من الثياب تتناسب مع معتقداتهم وتحقق لهم التميز والتفرد. ومن ينظر في هذه الأشكال الحاصلة ويبحث في خلفياتها؛ فسوف يقف على ما في ظاهرة اللباس من مخزون ثقافي وأبعاد رمزية، لأنّ اختيارها لم يكن اعتباطياً، وإنّما كان مدروساً وهادفاً، وهذا من الأسباب التي دفعتنا إلى الاهتمام بالزيّ الصوفي أو اللباس عند الصوفية عموماً، خاصة أنّ المسألة لم تكن موضع اتفاق حقيقي بينهم، إنّما حملت الكثير من الاختلاف والتباين سواء في الاختيار أو التعليل، ممّا وصل إلى حدّ التضارب أحياناً، ودعا عدداً منهم إلى تخصيص باب أو فصل أو حتّى كتاب في تصانيفه لمعالجة هذه الظاهرة وتوضيحها، من قبيل: "باب في ذكر آدابهم في اللباس" لأبي نصر السراج الطوسي في كتابه "اللمع"² وكذلك "باب في لبس البدلة من الثياب"³ و"باب في اتّخاذ المرقعة ولبسها"⁴ لأبي عبد الرحمن السلمي في كتابه "كتاب الأربعين في التصوف"، وأيضاً ما أقدم عليه كلّ من أبي معمر الأصفهاني وأبي الحسن الهجويري من تأليف كتاب مفرد للموضوع سمّاه الأوّل "كتاب في إشارات المرقعة"⁵ أمّا الثاني فاتخذ له عنواناً هو "أسرار الخرق والملونات"⁶.

¹ يقول أندري لوروا قوران (André Leroi-Gourhan):

- "L'appartenance au groupe est d'abord sanctionnée par le décor vestimentaire", (Leroi-Gourhan, le geste et la parole, tome II, La mémoire et les rythmes. Paris: Albin Michel, 1964, p118)

² الطوسي (أبو نصر السراج)، كتاب اللمع، حقّقه وقدم له وخرّج أحاديثه د. عبد الحليم محمود/ طه عبد الباقي سرور. مصر: دار الكتب الحديثة / بغداد: مكتبة المثنى. 1380 هـ/ 1960م، ص ص 248-249

³ السلمي (أبو عبد الرحمان)، كتاب الأربعين في التصوف، طبعة أولى، حيدر أباد الدكن- الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1369 هـ/ 1950م، ص 8

⁴ المصدر السابق، ص 12

⁵ انظر: الهجويري (أبو الحسن)، كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة الدكتور أمين عبد المجيد بدوي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1980، ج 1، ص 252

⁶ المصدر السابق، ج 1، ص 253

ويكاد لا يخلو كتاب في التصوف من الحديث عن لباس الصوفية، مما يكشف القيمة التي اكتسبها هذا الموضوع في الفكر الصوفي. وسنكتفي في هذا المبحث برصد جانب من تطوّر ظاهرة اللباس عند الصوفية في مراحل تاريخية مختلفة للتصوف الإسلامي.

1. أشكاله:

اتخذ اللباس عند الصوفية أشكالاً مختلفة؛ فمنهم من لبس الصوف والخرقة والمرقعة، ومنهم من لبس الثوب الرفيع اللين والخشن. ويمكن أن نحصر هذه الأشكال في سياق اتجاهين اثنين: أولهما التزم الخشن والفقر والفلة مبدأ؛ والثاني انتهج سبيل العادة وتزيّياً بزّي العامة المتوقّر، أو لبس على قدر طاقته وحسب وقته وحاجته دون أن يجعل من ذلك همّاً أو شرطاً.

أ. لباس الفقر:

هذا الصنف من اللباس هو الأكثر حضوراً في أخبار الصوفية، إذ اعتمده عدد غير هين منهم للدلالة على قطعه مع علائق الدنيا والانتساب إلى مذهب التصوف، ولم يتخذ هذا الزيّ وجهاً واحداً، إنّما ظهر في وجوه عدّة أطلق عليها الصوفية مصطلحات مختلفة منها الخرقّة والمرقعة والمصبغة... ومعظمها يتّخذ من الصوف، وهذا ما يؤكّده أبو نصر السراج الطوسي في ربطه تسمية التصوّف بلبس الصوف، وذلك في قوله: "إن سأل سائل فقال: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه، فلم قلت: الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم؟ فيقال له: لأنّ الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، فلما لم يكن ذلك، نسبتهم إلى ظاهر اللبسة، لأنّ لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء. ألا ترى أنّ الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عزّ وجلّ: "وإذ قال الحواريّون، "وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك"⁷، فهذا الكلام دليل على أنّ الغالب عند الصوفية لبس الصوف وتصرفهم فيه، إمّا بالتقصير أو التمزيق أو الترقيع أو الصبغ، وهذا ما أنتج الأنواع التالية:

⁷ الطوسي، اللمع، ص ص 40-41

- المرقعة⁸:

يقول أبو الحسن الهجويري: "اعلم أنّ لبس المرقعة شعار المتصوف"⁹، "وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلّوا بالمرقعات ويتزينوا بها وفعّلوا هم أيضا ذلك"¹⁰، وهذا يكشف أهميتها عند الصوفية. والمتتبع لأحاديثهم عنها وأخبارهم المتصلة بها يتبين له أنّ عددا منهم بالغ في العناية بها، إلى درجة أنه وضع شروطا لها، وهو ما يجمله الهجويري في قوله: "أما شرط المرقعات فهو أن يعملها الصوفي من أجل الخفة والفراغ وحيثما يتمزق شيء من الأصل يوضع فوقه رقعة"¹¹. وتكون المرقعة إمّا بخياطة ما تمزق من الثوب وشدّ أجزائه بعضها إلى بعض أو بإضافة رقعة في الموضع الذي وقع فيه الخلل أو حتى بتمزيق ثوبين أو أكثر وجعلها: "خرقا... يلفقونها، فإن لبس مثل هذه المرقعات أشهى عند خلق كثير من الديباج"¹². ويأتي هذا في سياق تقليل الصوفية من اللباس واكتفائهم بثوب واحد يعمدون أحيانا إلى استنجاره أو استعارته لا امتلاكه وشراؤه، من ذلك ما ورد في كتاب اللمع أنّه: "كان في جامع بغداد فقير لا تكاد تجده إلا في ثوب واحد في الشتاء والصيف، فسئل عن ذلك فقال: قد كنت ولعت بكثرة لبس الثياب فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنّي دخلت الجنة فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة فأردت أن أجلس معهم فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا بيدي وأقاموني، وقالوا لي: هؤلاء أصحاب ثوب واحد، وأما أنت فلك قميصان فلا تجلس معهم، فانتبهت فنذرت ألا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله عزّ وجلّ"¹³.

وكذلك ما يروى عن أبي يزيد البسطامي أنّه مات "ولم يترك إلا قميصه الذي كان عليه وكان عارية، فردّوه إلى صاحبه"¹⁴ وكذلك الشيخ حمّاد "أنّه بقي زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا حتّى أنّه لم يلبس على ملك نفسه شيئا"¹⁵ لذا من الطبيعي أن يلجّ الصوفية على اصطحاب الإبرة في سياحاتهم وأسفارهم؛ فأبراهيم

⁸ الترفيع في اللغة يقترن بسدّ الخلل يقول ابن منظور: "ترفيع الثوب: أن ترفعه في مواضع وكلّ ما سدّدت من حلة فقد رفّعه ورفّعته". انظر: ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان: طبعة دار صادر للطباعة والنشر، 1997، مج3، ص 106

⁹ الهجويري، كشف المحجوب، ج 1، ص 241

¹⁰ المصدر السابق، ج 1، ص 245

¹¹ المصدر السابق، ج 1، ص 246

¹² ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمان)، تلييس إبليس، طبعة ثانية، دار الفكر، 1368 هـ، ص 187

¹³ الطوسي، اللمع، ص 248

¹⁴ السهروردي (عبد القاهر)، عوارف المعارف، الطبعة الثّانية، نشر دار الكتاب العربي، 1403 هـ/ 1983 م، ص 355

¹⁵ المصدر السابق، ص 355

الخواص مثلا، كان "لا يحمل شيئا في السفر وكان لا يفارقه الإبرة والركوة، أما الإبرة فلخياطة ثوبه إن تمزق سترا للعودة، وأما الركوة، فللظهارة"¹⁶.

ويشير الهجويري إلى اختلاف الصوفية في كيفية وضع الرقع بين من: "لا يشترط مراعاة نظام لحياكة الرقعة فتسحب الإبرة، حيثما تخرج رأسها ولا يتكلف في هذا"¹⁷ وبين من "يشترط لحياكة الرقعة الترتيب والاستقامة ورعاية التضريب والتكلف في الاستقامة"¹⁸ حتى إن بعضهم جعل الإحاطة بكيفية خياطة الرقعة خياطة مستقيمة شرطا لصحة الفقر أو التصوف تحصينا لتجربتهم ومذهبهم وحماية له من تطفل المتشبهين به والمدعين له. يقول الهجويري: "لما تأدوا من صحبة الأضداد"¹⁹ اتخذوا زينة لا يعرف أحد غيرهم حياكتها وجعلوها علامة لمعرفة بعضهم البعض واتخذوها شعارا، حتى ليقال إن درويشا دخل على أحد الشيوخ وكان قد جعل خطوط الرقعة التي خاطها على ثوبه مستعرضة فهجره الشيخ"²⁰. وقد نفهم من ذلك أن التصوف لم يعتن بالباطن فحسب، وإنما أولى اهتمامه أيضا للظاهر لقيمته في تحديد خصوصية الفرد وتأثيره في نوع علاقته بالآخر وتركيز انتمائه لفئة أو مجموعة معينة.

ويبدو من خلال ما تنقله مصادر الصوفية من أخبار أن المرقعة قد شهدت العديد من الإضافات جرّاء الرقع أو الخرق التي تتضاف إليها "حتى تصير كثيفة خارجة عن الحد"²¹، فـ "كانت المرقعات تسمى... الكيل"²²، وقد نقل عن بعض الصوفية أوزان مخصوصة لمرقعاتهم من قبيل ما يذكره الطوسي عن ابن الكريني أستاذ الجنيد أنه مات "وعليه مرقعته فكان فرد كمه وتخاريزه عند جعفر الخلدي فيه ثلاثة عشر رطلا"²³، أو كذلك ما ينقله ابن الطواح في سبك المقال عن أبي محمد عبد العزيز المهدي أنه: "كان في أول إرادته يلبس مرقعة يقال إن فيها تسعين رطلا"²⁴.

¹⁶ القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن)، الرسالة القشيرية في علم التصوف، مصر: دار الكتب العربية الكبرى، 1330هـ/1911م، ص 132

¹⁷ الهجويري، كشف المحجوب، ج 1، ص 248

¹⁸ المصدر السابق، ج 1، ص 248

¹⁹ المقصود الدخلاء على التصوف أو من يسميهم الهجويري بالمستصوفين.

²⁰ الهجويري، كشف المحجوب، ج 1، ص 248

²¹ ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص 191

²² المصدر السابق، ص 191

²³ الطوسي، اللمع، ص 249

²⁴ ابن الطواح (عبد الواحد محمد)، سبك المقال لفك العقال، تحقيق ودراسة محمد مسعود جبران، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1995، ص 52

- الخرقّة:

وهي لغة "القطعة من خرق الثوب، والخرقة المزرقة منه، وخرقت الثوب إذا شققته"²⁵ كما ترد بمعنى الرقعة،²⁶ لأنّ الصوفية يعتمدونها في ترقيع أثوابهم فهي جزء من مرّعاتهم، وقد يقصد بها أيضا المرقعة ذاتها، لأنها مادة صنعها، يقول الهجويري: "رأيت في ما وراء النهر شيئا من أهل الملاحة يتخذ ملابسه من الخرق التي يلتقطها من الطريق ويطهرها ويصنع منها مرّعته"²⁷، أو تكون مستقلة عنها مغايرة لها فتعني الثياب المخرقة التي يعزف أصحابها عن ترقيعها أو القطع التي يستعملها الصوفية لمجرد ستر العورة أو غطاء للرأس بدل العمامة²⁸. وأخبار الصوفية في هذا السياق عديدة، من ذلك ما ينقله السلمي على لسان سمنون المحبّ في قوله: "كنت ببيت المقدس وكان برد شديد وعليّ جبّة وكساء وأنا أجد البرد، والتلج يسقط، فإذا شاب مار في الصحن عليه خرقتان، فقلت: يا حبيبي لو استترت ببعض هذه الأروقة، فيكنّك من البرد، فقال لي: يا أخي سمنون

ويحسن ظنيّ أنّي في فنائهم وهل أحد في كنهه يجد القرا"²⁹.

فالشاب في هذا الخبر اكتفى بخرقتين، واتخذهما ثوبا له وسترًا لعورته، وليس في سياق الكلام ما يدلّ على أنّ المقصود مرقعة أو لباس يستر كامل الجسد. ويذكر الهجويري أنّ عددا من الصوفية اعتادوا تخريق الثياب، إذ يقول: "اعلم أنّ تخريق الثياب بين هذه الطائفة أمر معتاد، وقد فعلوا هذا في المجامع الكبرى التي كان المشايخ الكبار — رضي الله عنهم — حاضرين فيها"³⁰، ويؤكّد ابن الجوزي كلامه بقوله: "كان في الصوفية من إذا لبس ثوبا خرق بعضه وربما أفسد الثوب الرفيع القدر. وكان من عادة الشبلي إذا لبس شيئا خرق فيه موضعا. وكان مذهب أبي علي الروزباري تخريق أكمامه وتفتيق قميصه، فكان يخرق الثوب المثلث، فيرتدي بنصفه ويأترز بنصفه"³¹. ونلاحظ من خلال القولين أنّ سلوك تخريق الثياب عند الصوفية قد يكون مقترنا بمناسبة الذكر والسماع (المجامع الكبرى)، وقد يكون دأبا ساروا عليه رفضا للجديد والثمين الدنيوي وتمردا عليه.

²⁵ ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص 245

²⁶ المصدر السابق، مج3، ص 106

²⁷ الهجويري، كشف المحجوب، ج 1، ص 247

²⁸ ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص 205

²⁹ السلمي (أبو عبد الرحمن)، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريفة، الطبعة الثالثة، مصر: مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، مطبعة المدني المؤسّسة السعودية، 1406 هـ/ 1986 م، ص 196

³⁰ الهجويري، كشف المحجوب، ج 2، ص 665

³¹ ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص 202-203

وليس من الغريب إذًا أن نجدهم يبيحون التقاط الخرق من المزابل وارتداءها، يقول السهروردي: "ربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم"³²، فهم لا يهتمون – وفق هذا الاتجاه – بشكل الثوب أو مصدره أو قيمته أو نظافته بقدر ما يوجهون عنايتهم إلى وظيفته وشرعيته (أي الستر والطهارة والحلال)، يقول السهروردي: "قيل لبعض الصوفية: ثوبك ممزق، قال: ولكنّه من وجه حلال، وقيل له: وهو وسخ قال: ولكنّه طاهر"³³.

- المصبغة:

يغلب عليها اللون الأزرق وقد اختاره عدد من الصوفية لكثرة أسفارهم وتنقلاتهم، يقول الهجويري: "أما معنى أن أكثر ثيابهم زرقاء، فمنه أنهم وضعوا أصل طريقتهم على السفر والسياحة ولا يبقى الثوب الأبيض في السفر على حاله ويصعب غسله"³⁴. والملاحظ، أن حديث الصوفية عن المصبغات قليل لاندراجه ضمن كلامهم في المرقعات والخرق عموماً.

ب. لباس الوقت:

لا يخضع هذا الصنف من اللباس إلى اختيار مسبق من قبل الصوفية، إنّما يرتبط بالمتوقّر من جهة وبحال السالك من جهة أخرى، والغالب فيه لا مبالاة المتصوف وقلة اهتمامه بشكله ومادته؛ فالمهمّ عنده هو الستر وتجنّب الشهوة ولفت الانتباه، يقول أبو نصر السراج الطوسي: "آداب الفقراء في اللباس أن يكونوا مع الوقت إذا وجدوا الصوف أو اللبد أو المرقعة لبسوا، وإذا وجدوا غير ذلك لبسوا والفقير الصادق أيش ما لبس يحسن عليه، ولا يتكاف ولا يختار، ويكون الخلقان أحبّ إليه من الجديد ويتبرّم بالثياب الكثيرة الجديدة"³⁵. وقد ألح الصوفية الأوائل على هذا الجانب بالتسوية بين مختلف أصناف اللباس واعتبارها أمراً ثانوياً لا ينبغي للصوفي أن يجعله همّاً أو شاغلاً فيحجبه عن مقصوده، وقد تعدّدت في أقوالهم الإشارات إلى ذلك من قبيل ما ينقله السلمي على لسان شقيق البلخي إذ يقول: "إذا أردت أن تكون في راحة فكل ما أصبت والبس ما وجدت وارض بما قضى الله عليك"³⁶، أو كذلك قول أبي تراب النخشي: "الفقير قوته ما وجد، ولباسه ما ستر،

³² السهروردي، عوارف المعارف، ص 354

³³ المصدر السابق، ص 353

³⁴ الهجويري، كشف المحجوب، ج 1، ص 250

³⁵ الطوسي، اللّمع، ص 249

³⁶ السلمي، طبقات الصوفية، ص 66

ومسكنه حيث نزل³⁷. فجميع هؤلاء لم يلتزموا بصنف معيّن من اللباس، وبعضهم عرف بالتقشف والزهد في بداية أمره ثم صار يلبس الثياب الرفيعة والنفيسة، إذ يروى مثلاً عن يحيى بن معاذ الرازي: "أنّه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ثم كان في آخر عمره يلبس الخزّ واللين"³⁸. والأمر نفسه حدث مع أبي حفص النيسابوري الذي "كان يلبس قميصاً خزّاً وثياباً فاخرة"³⁹.

وكان أبو العباس بن عطاء "يلبس المرتفع من البز كالديبقي، ويسبح بسبح اللؤلؤ، ويؤثر ما طال من الثياب"⁴⁰. وهذا يعني أنّ ظاهرة اللباس عند عدد من الصوفية كانت تعتبر شأناً فردياً ومسألة ثانوية لا تمسّ بجوهر التصوّف ما لم تشدّ عن السنّة والشّرْع عموماً. يقول الهجويري: "حين يكون الرجل عارفاً بالطريقة يستوي لديه القباء والعباءة"⁴¹ ويقول السهروردي: "من الناس من يتوفر حظه من العلم فيلبس الثوب عن علم وإيمان ولا يبالي بما لبسه ناعماً لبس أو خشناً"⁴² وهو يقدم على ذلك العديد من الأمثلة من شيوخه، فيذكر أبا نجيب السهروردي الذي كان "لا يتقيد بهيئة من الملبوس، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار"⁴³.

ولئن كان ابن عطاء يؤثر من الثياب ما طال، فإنّ الغالب عند الصوفية في هذا السياق التفسير دون تكلف، إذ يقول أبو سليمان الداراني مثلاً: "في قصر الثوب ثلاث خصال محمودة: استعمال السنة، والنظافة وزيادة خرقة"⁴⁴.

نلاحظ من خلال هذا العرض لأشكال اللباس عند الصوفية، أنّ الاهتمام قد انصبّ على ما يمتدّ على القسم الأبرز من بدن الصوفي ونقصد القميص أو العباءة أو الجبّة أو المرقعة، وقلّت في المقابل الإشارات إلى غطاء الرأس أو العمامة، وكذلك الحذاء أو الخفّ لقلّة مباينتهم في هذا الجانب للمألوف عند العامة، من قبيل ما

³⁷ المصدر السابق، ص 149

³⁸ الطوسي، اللّمع، ص 249

³⁹ المصدر السابق، ص 249

⁴⁰ ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص 202

⁴¹ الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ص 245

⁴² السهروردي، عوارف المعارف، ص 357

⁴³ المصدر السابق، ص 356

⁴⁴ الطوسي، اللّمع، ص 248

يذكره القشيري من سفر أبي عبد الله الرازي "حافيا"⁴⁵ أو ما ينتقده ابن الجوزي من استبدال العمامة بخرقه⁴⁶ عند عدد من الصوفية وهو سلوك نادر.

ولا يعدم اختلاف الأشكال حضور نقاط مشتركة بينها حرص الصوفية على إبرازها وتأكيداتها والتنبيه إليها، مثل ضرورة تجنب الشبهة والتكلف والمغالاة والخروج عن الشرع، ويدل هذا على مدى وعيهم بخطورة ظاهرة اللباس وقيمتها.

2. تاريخية ظاهرة اللباس عند الصوفية:

يمكن أن نرصد تطوّر اهتمام الصوفية أو تفاعلهم مع ظاهرة اللباس خلال مرحلتين مهمتين؛ أولاهما اتخذت صبغة فردية؛ والثانية كانت جماعية.

أ. اللباس اختيار فردي:

تقترن هذه المرحلة ببدايات التصوف، وتمثل امتدادا لظاهرة الزهد، فقد كان الغالب على الزهاد في القرنين الأول والثاني للهجرة التقشف في اللباس والاكتفاء بالقليل البسيط منه، وانتهج الصوفية الأوائل نهجهم نظرا لكون الزهد ركيزة أساسية في تجربتهم التعبديّة، وبرز لديهم خاصّة لبس الصوف، يقول أبو سليمان الداراني: "الصوف علم من أعلام الزهد"⁴⁷. ولم يكن هذا ناتجا عن تنسيق مقصود أو اتفاق مسبق بين الصوفية، إنّما كان حصيلة تجارب وتصوّرات فردية بني بعضها على منطق المصادفة أحيانا، من ذلك ما وقع مع إبراهيم بن أدهم ونقله عنه السلمي في قوله: "قال إبراهيم بن أدهم: كان أبي من ملوك خراسان وكنت شابا، فركبت إلى الصيّد فأثرت أرنا أو ثعلبا فبينما أنا أطلبه إذ هتف بي هاتف لا أراه، فقال: يا إبراهيم ألهدا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ ففزعت ووقفت ثم عدت فركضت، ففعل بي مثل ذلك ثلاث مرات، ثم هتف بي هاتف: والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، قال: فنزلت فصادفت راعيا لأبي يرعى الغنم، فأخذت جيّته الصوف فلبستها ودفعت إليه الفرس، وما كان معي وتوجهت إلى مكة"⁴⁸. فلبس الصوف ههنا قادت إليه المصادفة، ولم يكن بسابق تخطيط أو تدبير.

⁴⁵ القشيري، الرسالة القشيرية، ص 132

⁴⁶ ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص 205

⁴⁷ القشيري، الرسالة القشيرية، ص 56

⁴⁸ السلمي، طبقات الصوفية، ص 30

أضف إلى ذلك أنّ من الصّوفيّة من اعتبر مسألة اللباس أمراً ثانويّاً لا يمسّ من جوهر التّصوّف، وفي هذا يقول أبو الحسن النّوري: "ليس التّصوّف رسوماً ولا علوماً ولكنّه أخلاق"⁴⁹ ويقول سفيان الثّوري: "الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء"⁵⁰، وبذلك يتقاطع الزهد والتّصوّف باشتراكهما في التقليل من أهميّة دور اللباس وتأثيره في السلوك.

إلا أنّ هذه المسألة سرعان ما اتّخذت منحرجاً جديداً لتصبح مشغلاً جماعياً يدلي فيه كلّ بدلوه جرّاء تضخّم عدد الصّوفيّة، وتجمّع معظمهم في صلب جماعات يحكمها نظام مخصوص يديره شيخ يصحبه فيه عدد من المريدين، وتتهدّد عدّة عناصر دخيلة.

ب. اللباس همّ جماعيّ:

اقترن هذا التّحوّل بأواخر القرن الثّاني للهجرة مع انتشار ظاهرة التّصوّف، وبروزها وخروجها من طور التجربة الفردية إلى طور التجربة المنظمة في إطار جماعيّ، ونتيجة أيضاً للمنزلة التي حظيت بها في الأوساط الاجتماعيّة، إضافة إلى ظهور عناصر دخيلة تزيّت بزّي الصّوفيّة، وأدعت الانتماء إليهم طمعا ورياء، فقدّمت صورة مردولة عدلت عن المقصد الحقيقي للتّصوّف، وجعلته عرضة لردود فعل عنيفة من قبل الفقهاء خاصّة، ممّا استدعى تدخّل أعلامه لتعديل المفاهيم ودفع الشّبّهات وتوضيح المقاصد وتثبيت الأصول حماية لتوجهاتهم وقيمهم، وهذا ما دفعهم إلى إيلاء مسألة اللباس أهميّة أكبر لكونها من المنافذ التي ولج منها خصومهم، واتّخذوها سبيلاً للطعن فيهم؛ فعملوا على بيان الوجوه السليمة في اختيار الثّوب، منتهجين في ذلك أساليب ثلاثة؛ أولها الاعتراض والاستهجان؛ وثانيها التّأصيل والتّشريع؛ وثالثها التّعديل والإرشاد.

الاعتراض:

نجد هذا الأسلوب متى تعلّق الأمر بالمبالغة والغلو؛ فقد سعى الصّوفيّة في أحيان عدّة إلى المناداة بنوع من الوسطيّة والاعتدال في اختيار اللباس، فلم يشترطوا الصّوف ولا المرقّعة ولا الخرقّة، إنّما أباحوا جميع أنواعه ما لم تكن معطّلة لمقصد المريد أو مكروهة أو محرّمة شرعاً، وقد لمسنا ذلك بدءاً في تعريفهم للتّصوّف على أنّه يتحرّر من الرسوم والأشكال الظّاهرة ليلتصق أكثر بالباطن وبالجانب الأخلاقي، وهو ممّا دفع إلى التّشكيك في صحّة الوصل بين لبس الصّوف وتسمية التّصوّف أو الصّوفيّة، يقول أحمد بن عطاء: "فأمّا قول

⁴⁹ الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ص 237

⁵⁰ القشيري، الرسالة القشيريّة، ص 56

من قال إنّه من الصّوّف وتصوّف إذا لبس الصوف كما يقال تقمّص إذا لبس القميص فذلك وجه، ولكنّ القوم لم يختصّوا بلبس الصّوّف⁵¹.

أضف إلى ذلك أنّ مصادر التّصوّف قد سجّلت اعتراضات عدد من مشايخ الصّوفيّة على العناية المتكلفة بالظّاهر، يقول الخراز: "إذا رأيت الصّوفي يعنى بظاهره، فاعلم أنّ باطنه خراب"⁵²، ويقول أبو حفص الحدّاد: "إذا رأيت ضوء الفقير في ثوبه فلا ترج خيره"⁵³، وينقل أيضا عن أبي عبد الله الدينوري قوله لبعض أصحابه: "لا يعجبك ما ترى من هذه اللبسة الظّاهرة عليهم، فما زيناوا الظّواهر إلّا بعد أن خرّبوا البواطن"⁵⁴.

وتأتي هذه الاعتراضات كما أسلفنا استجابة لضرورة اقتضاها ما تفشّى من تقليد مشوّه للصّوفيّة عبر إظهار لباس الصّوّف والمرقعات. وقد انتقد الثّوري هذا الوضع بقوله: "كانت المراقع غطاء على الدّرّ، فصارت اليوم مزابل على جيف"⁵⁵ وهو ينكر بذلك ما داخل التّصوّف من رياء ونفاق وخداع وتمسّك بالظّاهر، حتّى إنّ أحد المدّعين للتّصوّف سئل "تبيع جبتك الصّوف؟ فقال: إذا باع الصّيّاد شبكته فبأيّ شيء يصطاد؟"⁵⁶. فقد بات اللباس شركا يتمّ توظيفه في تحصيل مصالح دنيوية عبر الإيقاع بالعامّة. ويؤكّد ابن الجوزي هذا التّوجّه في الخداع والزّيف والرياء بتقديمه لصورتين مذمومتين عنده الأولى لـ "من يلبس الصّوف تحت الثّياب ويلوّح بكمّه حتّى يرى لباسه"⁵⁷ والثّانية لمن "يلبس الثّياب اللّينة على جسده ثمّ يلبس الصّوف فوقها"⁵⁸.

وقد بلغ موقف الاعتراض عند عدد من الصّوفيّة حدّ رفض لبس الصّوف والمرقعة، من ذلك ما ينقل عن سفيان الثّوري واعتباره لبس الصّوف بدعة⁵⁹، أو ما نسب إلى أبي تراب النّخشي من كلام توجّه به إلى أصحابه ينصحهم، ويحدّثهم من لبس المرقعة وذلك في قوله: "من لبس منكم مرقعة فقد سأل"⁶⁰.

⁵¹ المصدر السابق، ص ص 125-126

⁵² المصدر السابق، ص 127

⁵³ الطوسي، اللّمع، ص 248

⁵⁴ السّلمي، طبقات الصّوفيّة، ص 515

⁵⁵ القشيري، الرسالة القشيرية، ص 20

⁵⁶ ابن الجوزي، تلبّيس إبليس، ص 198

⁵⁷ المصدر السابق، ص 187

⁵⁸ المصدر السابق، ص 187

⁵⁹ المصدر السابق، ص 196

⁶⁰ القشيري، الرسالة القشيرية، ص 17

التأصيل والتشريع:

وهو الأسلوب الأكثر حضوراً في كتابات الصوفية وخاصة المتأخرة منها، إذ عمد أصحابها فيها إلى تخصيص أبواب مفردة لموضوع اللباس، وحشدوا فيها من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة والتابعين وأقوال الصوفية ما برروا به لبستهم، واحتجوا لها وأكسبوها صبغة شرعية، من ذلك ما نعثر عليه في باب "اتخاذ المرقعة ولبسها" ضمن "كتاب الأربعين في التصوف" لأبي عبد الرحمن السلمي، إذ يورد فيه مستند الصوفية في ارتداء المرقعات، وهو حديث منسوب إلى أم الحصين، ومثته: "كنت في بيت عائشة رضي الله عنها، وهي ترقع قميصاً لها بألوان من رقع بعضها بياض وبعضها سواد، وبعضها غير ذلك، فدخل النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال ما هذا يا عائشة؟ قالت قميص لي أرقعه، فقال أحسنت، لا تضعي ثوبا حتى ترقعيه، فإنه لا جديد لمن لا خلق له".⁶¹ فقد عدّ الصوفية هذا الحديث منطلقاً شرعياً لاتخاذ المرقعة لباساً وتفضيل القديم على الجديد.

وكذلك الشأن مع أبي الحسن الهجويري في كتابه كشف المحجوب، إذ جعل بابين أحدهما في لبس المرقعة والآخر في الخرقعة، وحشد فيهما من الأحاديث والأخبار ما أكسبهما المشروعية وأدرجهما ضمن السنة، من ذلك نقله لحديث نبوي مثته: "عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم"⁶²، واستعراضه لتقاليد عدد من الصحابة والتابعين في لبس المرقعات، إذ يروي أنّ عمر بن الخطاب "كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة"⁶³ ويثبت أنّ كلاً من الحسن البصري ومالك بن دينار وسفيان الثوري كانوا "أصحاب مرقعات صوفية"⁶⁴.

وينتهج السهروردي في كتابه عوارف المعارف النهج نفسه، فيقرّ بأنّ "لبس الخرقعة من السنة"⁶⁵ ويحتجّ لذلك بخبر أمّ خالد بنت خالدة ولباس الرسول لها ثياباً "فيها خميصة سوداء صغيرة"⁶⁶ مع اعترافه باختلاف هيئة الخرقعة الصوفية عن صورة اللباس في عهد الرسول، ولكنّ هذا لا يمنع عنده من وصلها بالسنة وتأصيل أخذها وتشريعه عبر المماثلة بين مبايعة المريد لشيخه لحظة تقبله الخرقعة منه وبين مبايعة الصحابة للرسول.

⁶¹ السلمي، كتاب الأربعين في التصوف، ص 12

⁶² الهجويري، كشف المحجوب، ج 1، ص 241

⁶³ المصدر السابق، ج 1، ص 241

⁶⁴ المصدر السابق، ج 1، ص 242

⁶⁵ السهروردي، عوارف المعارف، ص 96

⁶⁶ المصدر السابق، ص 97

ولم تعد المسألة متوقفة على البحث عن مسوّغات شرعية لتحديد هيئة اللباس ومادته، إنّما تجاوزت ذلك إلى استقرار دلالاته ومقاصده وإدراجها ضمن أهداف سلوك الأنبياء والصالحين امتداداً لمجهود أوائل الصوفية، أمثال الجنيد في وصله لبس الصوف بالنبي عيسى "لأنّ ملابسه كانت كلّها صوفاً"⁶⁷.

التعديل والإرشاد:

يتخذ هذا الأسلوب صورتين؛ الأولى تقوم على تحميل اللباس دلالات باطنة مجردة؛ والثانية تتمثل في توجيه السلوك الصوفي وتصحيحه بالتنبيه إلى ما يمكن أن يعترضه من مزالق.

أما الصورة الأولى، فيمكن أن نقدّم عليها أمثلة من بعض أقوال الصوفية يقع فيها الحديث عن اللباس موصولاً بجملته من المقامات والأحوال. من ذلك قول منصور بن عمار: "أحسن لباس العبد التواضع والانكسار وأحسن لباس العارفين التقوى"⁶⁸، وكذلك كلام أبي العباس القاسم السيارى: "لباس الهداية للعامّة ولباس الهيبة للعارفين ولباس الزينة لأهل الدنيا ولباس اللقاء للأولياء ولباس التقوى لأهل الحضور"⁶⁹. وفي هذا تحويل لدلالة اللباس وخروج عن صورته الحسية إلى صورة مجازية معنوية، ويتأكد هذا التوجه مع الهجويري ضمن ما يصطلح عليه بإشارات اللباس، إذ يقول: "وخير الإشارات في المرقعة القول بأن يكون قبها من الصبر وكماها من الخوف والرّجاء وإبطاها من القبض والبسط ووسطها من مخالفة النفس وجيبتها من صحّة اليقين وسجفاها من الإخلاص"⁷⁰، وهو يحكم الرّبط ههنا بين الأحوال الصوفية ونوعية اللباس تجاوزاً للظاهر وارتقاء بدلالاته ليبرهن على أنّ الثوب ليس هدفاً في حدّ ذاته، إنّما هو ضرورة ووسيلة يخضع فيها الصوفي لضوابط مخصوصة. وقد نلمس صدى لذلك في قول أحد مشايخ الصوفية ينقل رؤياه للنبي عيسى، فيقول: "رأيت في النوم بتلك المرقعة من الصوف وكان يتلألأ من كلّ رقعة نور فقلت أيّها المسيح ما تلك الأنوار على الثوب؟ قال إنّها أنوار اضطراري فقد خطت كلّ رقعة منها لضرورة، فصير الله عزّ وجلّ كلّ أذى أصابني منه نوراً"⁷¹.

أما الصورة الثانية، فتظهر في بعض نصائح الصوفية لمريديهم أو أصحابهم يتمّ فيها التذكير بأداب التصوّف والإلحاح على ضرورة الوفاء بها إمّا بضرب المثال كما في كلام رجاء بن حيوة في تقويمه لثياب

⁶⁷ الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ص 235

⁶⁸ السلمي، طبقات الصوفية، ص 136

⁶⁹ المصدر السابق، ص 446

⁷⁰ الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ص 252

⁷¹ الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ص 247

"عمر بن عبد العزيز وهو يخطب باثني عشر درهما وكان قباء وعمامة وقميصا وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة"⁷²؛ فمثل هذه الأخبار يتناقلها الصوفية لتبرير فضل عدم التكاليف في الثياب. وكذلك أيضا مقصود أبي سليمان الداراني في قوله: "لا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة بخمسة دراهم"⁷³ وفيه تأكيد لضرورة تنقية الباطن وتطهيره من علائق الدنيا.

وقد يتضح هذا التوجه أكثر في اختبار بشر بن الحارث لجماعة من أصحاب المرقعات إذ قال لهم: "يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزي، فإنكم تعرفون به وتكرمون له، فسكتوا كلهم، فقام شاب من بينهم فقال: الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به ويكرم له والله لنظهرن هذا الزي، حتى يكون الدين كله لله، فقال بسر: أحسنت يا غلام، مثلك يلبس المرقعة"⁷⁴. وكذلك أيضا تيرير أبي عبد الله السجزي عدم لبسه المرقعة، وذلك في قوله: "من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل في حمل أثقال الفتوة، إنما يلبس لباس الفتيان من يصبر على حمل أثقال الفتوة"⁷⁵.

فهذان النصان وما سبقهما، ترجمة عن حرص الصوفية على تعديل سلوك مرديهم وتوجيههم نحو الصورة السليمة في كيفية التعامل مع اللباس، وهي تنطلق أساسا من ضرورة تصفية الباطن وتصحيحه.

وبهذا تتكامل الأساليب الثلاثة في معالجة مسألة اللباس، وتخليص التصوف من الالتباس الذي طرأ فيه وعدل به عن مقاصده وتسبب في إثارة انتقادات واسعة ضده.

3. رمزية اللباس عند الصوفية وأبعاده:

لم يعد اللباس كما رأينا شأنا فرديا فحسب، بل أضحي همما جماعيا واختزن من الدلالات والرموز ما ارتقى به من مجرد وسيلة لستر العورة أو تحقيق الانتماء إلى مجتمع محدد أو مذهب معين ليكون علامة على الصلاح والتفرد والمعرفة. فقد استفاد الصوفية من تجربة الزهاد الأوائل، واتخذوا أصنافا من اللباس جمع بينها طابع البساطة والبعد عن التكاليف؛ فكانت رمزا لتقشفهم وقناعتهم وقطعهم مع علائق الدنيا وحجب النفس البشرية وعلامة على تقيدهم بالسنة، لذا عملوا على إحكام وصلها بمقاماتهم وأحوالهم، وجعلوها مؤشرا على ترقيتهم فيها، يقول الهجويري: "الحقيقة في تخريق الثياب هي أنهم حين ينتقلون من مقام إلى مقام آخر يخلعون

⁷² القشيري، الرسالة القشيرية، ص 70

⁷³ المصدر السابق، ص 56

⁷⁴ الطوسي، اللمع، ص 248

⁷⁵ السلمى، طبقات الصوفية، ص 255

الثوب في الحال شكرا على وجدان هذا المقام ويعدون ثوبا آخر لباسا لمقام آخر⁷⁶ فكان الخشن من الثياب قرين البدايات، وكان اللين والمألوف غير منكر في النهايات. وأضحى اللباس علامة على صلة المرید الوثيقة بشيخه وولائه له واعترافه بفضلته ونصحه، ف "لبس الخرقه ارتباط بين الشيخ وبين المرید"⁷⁷ على حدّ تعبير السهروردي. كما أنّه بات مقياس وفاء الصوّفي بالأصول وتقيدّه بالشّرع وصبره على محن الطّريق وبعده عن الرّياء والتكلف والشّهرة.

بل إنّ اللباس عدّ تعبيراً عن موقف الصّوفيّة من واقعهم، وهو ما نتبيّنه في إجابة أحدهم على سؤال طلب منه تعليل اختياره اللون الأزرق في ثيابه فقال: "لقد بقي عن النبيّ عليه السّلام ثلاثة أشياء أولها الفقر والثاني العلم والثالث السّيف، ظفر السّلاطين بالسّيف ولم يستعملوه في موضعه، واختار العلماء العلم واكتفوا بالتعلّم فقط، واختار الفقراء الفقر وجعلوا منه آلة للغنى، فلبست الأزرق على مصيبة هذه الفئات الثلاثة"⁷⁸ "لأنّ اللباس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب، وهو لأناس رداء الحزن"⁷⁹؛ فقد حمل اللباس هنا موقفا رافضا للمجتمع والواقع في ظلّ تردّي الوضع السّياسي والمعرفي وعدول التّصوّف عن مقاصده، ويؤكد ذلك اعتراض أبي الحسين النّوري⁸⁰ على انتعال الغلمان في بغداد نعالا صرّارة فيها فتنة وإثارة، وهو ما يكشف مدى الانحلال والفساد الذي عايشه الصّوفيّة في مجتمعاتهم نتيجة تفشّي قيم الأنانيّة والطّمع والنّفاق والتكالب على المادّة، يكون اللباس عند الصّوفيّة إذّاك رمزا لتمردهم على واقعهم ورفضهم له.

لقد نظر الصّوفيّة في مختلف أشكال اللباس المعتمدة عندهم، وسنّوا لها ضوابط أحيانا تقيها شبهة البدعة والرّياء والشّهرة، ووضعوا لها مقاصد تبرّر اختيارها وتشرّع إقبالهم عليها؛ فالصّوف اقتداء بأهل الصّلاح وسعي للصفاء لأنّه "دأب الأنبياء.. وشعار الأولياء والأصفياء"⁸¹ على حدّ تعبير أبي نصر السّراج الطّوسي. والمرقعة مرادها "مؤنة الدّنيا وصدق الفقر لله تعالى"⁸² لذا لا يجوز ارتداؤها إلّا لمن صحّ فيه العزم على التّوجّه إلى الله والقطع مع الدّنيا ونداءات النّفس البشريّة، وهذا ما جعل الصّوفيّة يضعون التّأديب شرطا في إكسائها، ويكون ذلك "خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة، فإذا أدّى حقّها فيها وإلّا قالوا إنّ الطّريقة لا تقبله، فسنة منها لخدمة الخلق، وسنة ثانية لخدمة الحقّ وسنة لمرعاة قلبه، فإذا توفّرت هذه الشّروط الثلاثة في المرید

⁷⁶ الهجویری، كشف المحجوب، ج1، ص 253

⁷⁷ السهروردي، عوارف المعارف، ص 95

⁷⁸ الهجویری، كشف المحجوب، ج1، ص 250

⁷⁹ المصدر السابق، ج1، ص 250

⁸⁰ السّلمی، طبقات الصّوفيّة، ص 167

⁸¹ الطوسي، اللّمع، ص41

⁸² الهجویری، كشف المحجوب، ج1، ص 247

يسلم له بلبس المرقعة على وجه التحقيق لا التقليد⁸³ وهذا اعتراف منهم برفضهم المحاكاة والتقليد وتزكيتهم للمجاهدة والرياضة سبيلا لإدراك الحقائق.

كما أنهم جعلوا اللباس مقترنا بالبركة، وهو ما يسبغ عليه طابع القداسة سواء في اشتراط تلقّيه من الشيخ أو في كيفية التعامل معه استنادا إلى كلام الهجويري: "يشترط للثوب المجروح شيئان إما أن تخطيه الجماعة وترده لصاحبه وإما أن تعطيه لدرويش آخر أو تمزقه قطعة قطعة ويقسموه للتبرك"⁸⁴، فهم لا يتخلّون عن مرقعاتهم، بل يتوارثونها ويلتفون لإصلاحها ويتبركون بها، ممّا يبرهن عن قيمتها لديهم وقداستها في عرفهم.

خاتمة:

اتسم تعامل الصوفية مع موضوع اللباس بالاختلاف وتردد بين التهميش والتقدّيس، وفق ما فرضه تطوّر تجربتهم، واقتضته ظروف بيئتهم ومحيطهم وما طرأ فيها من متغيّرات بلغت حدّ ترك لباس الصوف، وهو ما برّره الهجويري بقوله: "أما ترك عادة هذه الطائفة فلا يكون شرطا في طريقهم. فقلّة ارتدائهم ثياب الصوف الآن له معنيان؛ أحدهما أنّ الأصواف تشعّنت والأنعام انتقلت في الغارات من مكان إلى مكان؛ والثاني أنّ طائفة من أصحاب البدع اتخذوا رداء الصوف شعارا لهم ومخالفة شعار أهل البدع سنّة ولو كان مخالفة للسنّة". فالتصوّف لم يكن معزولا عن واقعه، بل كان مواكبا لمستجدّاته متفاعلا معها متأثرا بها، وهذا ما دعاه إلى الحرص على بيان مقاصده دفاعا عن مفاهيمه وآدابه فكان التفصيل في أنواع اللباس ودواعيها وزمنها ودلالاتها، وكان البحث عن تسيبها بحدود الشرع وتأصيلها ضمن سيرة الأنبياء والرسل والصالحين وإباحة التنوّع والاختلاف فيها. لكنّ هذا المجهود لم يمنع من توجيه العديد من الاعتراضات عليهم، سجّلها خاصّة الفقهاء، وبلغت حدّ اتّهامهم بالبدعة والرّياء والعدول عن السنّة من قبيل ما ورد في كتاب "تلبّيس إبليس" لابن الجوزي.

⁸³ المصدر السابق، ج1، ص 251

⁸⁴ المصدر السابق، ج1، ص 248



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com